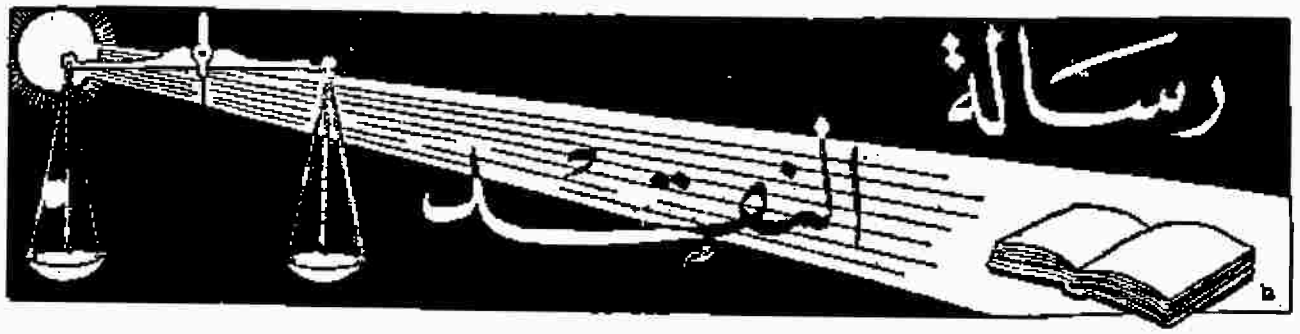

مباحث عربية

تأليف الدكتور بشر فارس

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

هذه مجموعة مباحث فى شئون « عربية ، إسلامية » تجمع بين التدقيق الاجتماعى والتحقيق اللغوى — فى مسائل اجتماعية وأخرى لغوية — وفى مستهل المجموعة استطلاع لشئون جماعة مسلمة فى أقصى الشمال جهة « فِنْلَنْدة » . وقد نشر بعض هذه المباحث بالعربية هنا فى مصر كما نشر البعض الآخر بالفرنسية هناك فى باريس أو روما . غير أن كاتبها الباحث المحقق الدكتور بشر فارس جمعها فى هذا الكتاب بعد أن أجرى فيها قسطاً من التهذيب ثم الحذف والزيادة . لأنه وجد فى نشر هذه المباحث بين دفتى كتاب ما يجعلها أدل منها وهى متفرقة ، وأبين منها وهى منشتة . هذا وقد رجا صاحبها بإصدارها أن يوطئ من حيث المنهج والأسلوب الأذهان لرسالته القيمة : « العِرض عند عرب الجاهلية » التى نال عليها إجازة الدكتوراه من باريس ، ونشرها بالفرنسية لأعوام خلت ، وهو اليوم يستعد لإخراجها فى اللغة العربية .

ـ وهذه المباحث من جهة المنهاج متأثرة بأساليب البحث الاجتماعى التى لا تترف مجالاً للافتراض ، فهى من هنا أقرب إلى أساليب البحث العلمى الوضعى منها إلى أساليب العلم البحت ؛ ومن جملة مخطوطاتها القيمة هذه الرسالة التى لا ثانى لها ، فهى مسودة المؤلف بخطه الذى « قل من يحسن استخراجه » وعليها خطوط لكبار الأئمة مثل ابن طولون الصالحى والرملى ...

وقد أخرجها الأستاذ سعيد الأفغانى على خير نسق تحيا عليه الرسائل العلمية القيمة ، ولم يدخر وسعاً فى بذل الجهد ليكون إخراجاً علمياً كاملاً ، فجاء آية فى الترتيب والدقة والصحة والجمال .

صنفها المؤلف أبواباً ثلاثة :

الباب الأول — فى خصائص السيدة عائشة وشىء من سيرتها

الباب الثانى — فى استدراكاتها على أكثر من عشرين من أعلام الصحابة الأجلاء مثل أبى بكر وعمر وعلى وابن عمر وابن عباس

الباب الثالث — فى استدراكات عامة

ويتجلى فى هذه الرسالة ذكاء المرأة وتقدها وفطنتها ومواهبها العلمية ومدى ثقافتها الواسعة التى نعمت بها بفضل الإسلام . وهو كتاب ضرورى لكل من درس شيئاً عن الإسلام من شرقى وغربى وفقيه وعالم ومحدث وأديب واجتماعى وكل مثقف

وقد صدر فى ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير .

بواسل

يعتمد الكثير من الأدباء فى التحقيق اللغوى على المعجمات العربية ، ويضربون صفحاً عن التنقيب فى النصوص الأدبية القديمة التى تعتبر أصلاً لهذه المعجمات

ولقد كتب أديب فاضل فى عدد ٣٠٧ من مجلة الرسالة يخطئ جمع باسل على بواسل ، معتمداً على ما انتهى إليه استقراء القواعد النحوية وما أحصته المعجمات اللغوية . وذكر أن الجمع الصحيح الذى ورد لهذه الكلمة هو « بسل وبسلاء وباسلون »

ولقد أسعدت المصادفة فالتقيت بالجارم بك وسألته فيما جاء بالرسالة خاصاً بهذا الجمع فأنشد :

وكتيبة سُفع الوجوه (بواسل) كالأسد حين تذب عن أشبالها
قد قُدْتُ أول عنفوان وعيلها فلقيتها بكتيبة أمثالها

فقلت : ولمن هذان البيتان ؟ فقال : هما من قصيدة « لباعث ابن صريم اليشكرى » من شعراء الجاهلية فى ديوان الحماسة فرجعت إلى القصيدة فوجدتها ص ١٤٩ من طبعة الراضى

حسن قاوائد

ومثل هذا النهج من حيث أنه يعتمد على تسليط النقد على الواقعات مع ردّها إلى مصادرها من طريق الوصف المباشر والاستشهاد بالنصوص الصريحة مقدمة لا بد منها للبحث العلمي البحت .

أما عن النهج : فهو التحقيق في الأصول والتدقيق في الفروع قدر ما يسمح به الموضوع ، والرجوع إلى المصادر والإشارة إليها في الحواشي التي تجمع إلى المراجع والمصادر إضافات وتهذيبات شتى يستخدم في سردها نظام الرموز والإشارات ؛ ومن هنا يمكن أن يقال إن منحى نهج الكتاب الطريقة الجامعية في التأليف ، وأسلوب الباحث علمي يمتاز بالوضوح والإشراق والتدقيق في اختيار الكلم مع شيء كثير من الصقل للعبارات . والكاتب بذلك يصون لغته من الأساليب المبتذلة التي جرت العادة أن تدور على أقلام الكتاب في هذا العصر من أدباء العصر

غير أنه وإن كان من مظاهر التدقيق في التعبير ، التدقيق في اختيار الكلم ، والتدقيق في وضع المصطلحات العربية للألفاظ الفنية الإفرنجية ، فإن هذا التدقيق الذي ينتهي به الكاتب — عادة — إلى نتائج قيمة من أسلوب واضح دقيق ، ووضع كلمات عربية تجري مجرى الاصطلاح الإفرنجي يخونه التوفيق بعض المرات ، وله بعد ذلك جانب السيء المذكور . من تلك الحالات التي خانه فيها التدقيق في التعبير واختيار الكلم قوله « وتسليط النقد النافذ من جهتيه — الخارجي والباطني — » ص ١٢ و ٤٢ من الكتاب . ومن المعروف أن كلمة داخل تقابلها من الجهة الأخرى خارج ، كما أن لفظة باطن تقابلها لفظة ظاهر ؛ فيكون تعبيره وإن دل على المعنى ، ضعيفاً من وجهة السياقة اللغوية العربية الخالصة . وقد استعمل بعضهم هنا في مصر ومنهم الأستاذ أحمد أمين اصطلاح النقد الداخلي والنقد الخارجي — في الإسلام ج ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ — وقد جاراه في ذلك الأستاذ أمين الخولي — أنظر تعليقه على مادة أصول من الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية ، م ٢ ص ٢٨٠ — وكان في إمكان الباحث أن يجري الكلام على هذا الوجه ، فذلك أدل على المعنى من جهة وأقوم من الوجهة التعبيرية العربية الخالصة من جهة أخرى فضلاً عن أنها جرت على الأقلام ، فمن هنا اكتسبت قيمة المصطلح الفني .

كذلك قوله : « الاعتماد على المشاهدة دون الغرض ، والتحقيق دون التخيل » فهو لو قال : « الاعتماد على المشاهدة دون التخيل والتحقيق دون الغرض » لاستقام معه المعنى والتعبير . ولقد جرى قلم الباحث بلفظة « أسلوب » في بعض مواضع من أبحاثه محملاً اللفظة أكثر مما تحتمل من حيث تدل على الطريقة أو النهج في الكتابة أو التفكير . فكان من ذلك أن قال : « وإذا بدا لك بعد هذا أن تعدل عن النقد الخارجي critique externe وهو النظر في الأسانيد إلى النقد الباطني critique interne وهو النظر في الأسلوب » ص ٤٢ ؛ ومن المعلوم أن النقد الداخلي ينظر في المتن ، والمتن ينقسم إلى معنى وعبارة ، أو مادة وشكل ، أو فكرة وأسلوب ، فالعبارة أو الشكل أو الأسلوب شيء يعرض له النقد الداخلي ، وليس بكل ما يعرض له (انظر لفظة أسلوب في لسان العرب) ومن هنا يبدو قصور تعبير الباحث عن أن يعد المعنى الذي في ذهنه ظله على ما يلبسه من معنى

ولقد جرى قلم المؤلف بلفظ سلوك تارة (ص ٥٦) وبلفظ أخلاقيات تارة أخرى (٣٦ ، ٥٦) مقابلاً لاصطلاح morale فرنسياً ، والسلوك من حيث يفيد النهج يقابل bchaicour افرنجياً . أما اصطلاح morale فيفيد الآداب ؛ أما الأخلاق عربياً فتقابل ethique . واستعمال لفظ السلوك لأحد مشتقات المصدر morale تارة ولفظ أخلاق لمشتق آخر لنفس المصدر ، يوقع في اللبس والاختلاط (راجع ص ٥٦ من الكتاب) . كذلك يعتبر الباحث كلمة « البصيرة » مقابلاً لـ intuition (ص ٥٧) ونحن نرجح لفظة « الحدس » لأنها فلسفياً كما جرت على أقلام فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي تفيد معنى الانتقال دفعة واحدة من المبادئ إلى النتائج ، وهذا ما تفيده معنى اللفظة intuition اصطلاحياً ولغوياً كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية

ثم عندك قول الكاتب : « إن للفظة الشرف مفادات متجاورة تارة ، متباينة أخرى » . ففي هذا التعبير لفظة التجاور تفيد أفرنجياً معنى synonyme أفرنجياً والقصور واضح في التعبير العربي . فضلاً عن أن التعبير غير مستقيم من جهة البناء اللغوي العربي . ولكي تستقيم مفادات العبارة لا بد من إبدال لفظة « التجاورة » من الجملة بالمتشابهة ، لأنها أدل على المعنى وأكثر اتساقاً في الجملة .

وقد كان يودى أن أمر بكل هذا الذى ذكرته — لأنه ملاحظات شكلية لا يخلو من أمثالها كاتب — ولكن تدقيق المؤلف وعنايته الظاهرة بالشكل ، هى التى دفعتنى لمجاراته فى التدقيق . وبعد فى موضوع الباحث مسائل تلفت النظر ، وموضوعات تستحق وقفة للتدبر ، فى المبحث الأول وهو عن « المسلمين فى فنلندة » وهى رسالة نشرت فى الأصل بالفرنسية فى مجلة الدراسات الإسلامية بباريس (١٣ ص ١/٨/١٩٣٤) نجد الباحث يقول إن هؤلاء المسلمين من « التركـ ـ التتر » الضاربين فيما وراء جبال أورال ، وقد هجروها إلى الشمال ، وحلّوا بفنلندة عقب الانقلاب السوفيتى فى روسيا . وهو فى قوله هذا يعتمد على ما رووه له ، وما تحدثوا به إليه ، دون أن يتعداه إلى سبل التحقيق للتأكد من صحة أقوالهم . فنحن نعرف أن المصادر التركية تتحدث عن رحلة جموع من « الأتراك ـ المسلمين » إلى الشمال فى القرن السادس عشر للميلاد ، وأنهم نزلوا بلاد « الفولا » ـ أنظر خيرُ الله أفندى فى دولت عَلِيّة عُثمانيّة تاريخى ج ٦ ص ١٣٨ ـ ١٤٥ ـ فهل تحقق الباحث من أن مسلمى فنلندة الذين شاهدهم عن كثب ليسوا من نسل هؤلاء ؟ وأن قولهم بأنهم أتوا فنلندة عقب الثورة الاشتراكية الكبرى فى روسيا حقيقة تخلو من الريب ؟ هذه أسئلة خطرت بالذهن حين تلونا للباحث كلامه فى صدد أصل هؤلاء .

ومسألة أخرى فى هذا البحث ، فالباحث يذكر أن جموع هؤلاء المسلمين الأتراك تنزل العاصمة ثم بمديفتى « تمرى » و « توركو » وهو لم يذكر لنا شيئاً عن المدينة الثانية وهل هناك صلة بين اسمها ولفظة « تورك » خصوصاً أنهم على ما يروى بين « الترك ـ التتر » . ولا شك أنه فى فترة خمسة عشر عاماً ليس فى مستطاع هذه الجموع « التركية ـ التترية » أن تخلع على المدينة اسماً مشتقاً من أصول جماعتها ، خصوصاً وهم أقلية ؛ وإذن فللموضوع شأن أعمق من القول بأن هؤلاء من الذين نزلوا « فنلندة » بعد الثورة البلشفية فى روسيا

على أنه يظهر أن الباحث أُخِذ بجدة الموضوع فلم يتعمق فى البحث ، آية ذلك أنه يقول : « إن لغة التعليم عندهم هى التركية وحروف هجائهم هى الحروف « اللاتينية ـ التركية » التى وضعت وشاعت بأمر أتاتورك » ـ ص ٢٤ ـ وهو بهذا يستدل على أنهم صرفوا هواهم عن روسية الجنوبية (؟) إلى أنقرة ـ ص ٢٣ ـ ولكن لتصح له الدعوى حتى يصح له الاستنتاج ، والدعوى لا بد لصحتها من التثبت من أن أحرف الهجاء التى يتخذونها هى الحروف « التركية — اللاتينية » التى أخذ بها الأتراك فى تركيا الكمالية ، وليست الحروف « التركية — اللاتينية » التى توافق عليها أتراك آسيا الوسطى والقوقاز والأورال فى مؤتمر تفليس عام ١٩٢٥ : (أنظر Soviet Commonism فى Sidny of Beatrice Webb — باب التعليم الوطنى —). ذلك أن هنالك بعض الفروق الطفيفة بين أحرف الهجاء اللاتينية ، كما هى عند أتراك الجمهورية التركية وأتراك الاتحاد السوفيتى ، وهذا الفرق يظهر واضحاً فى بعض الحروف التى تدل على حركات معينة ، وفى إمكان الباحث بمراجعة هذه الفروق أن يدلى برأى نهائى فى الموضوع .

على أنه بعد ذلك فى هذا الفصل استطلاعات اجتماعية قيمة تسبغ على البحث أهمية لا تنال منها هذه الملاحظات

والمبحث الثانى عن « مكارم الأخلاق » وهى محاضرة فى الأصل ألقاها الدكتور بشر فارس عام ١٩٣٥ فى مؤتمر المستشرقين بروما باللغة الفرنسية ونشرها بمجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم فى روما . وقد قام بترجمتها والتوسع فيها بعض الشىء فى الأصل العربى ، والبحث فى العموم دقيق فى أصوله ، ضارب إلى التثبت العلمى فى تفاصيله ، وكان بودنا أن نناقش الباحث آراءه التى أتى بها فى الموضوع ولكن المصادر أعوزتنا . لهذا صرفنا النظر عن مناقشتها . على أنه يظهر أن الباحث وفى الموضوع حقه من التحقيق والفحص العلمى .

(البقية فى العدد القادم) اسماعيل أحمد أدهم